أسس النقد الإسلامي للحضارة الغربية وخصائصه
دراسة تطبيقية على نقد بعض مفكري القرن العشرين

دكتورة/ مها بنت جريس الجريس

أستاذ مشارك بقسم الثقافة الإسلامية- كلية الشريعة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الرياض- المملكة العربية السعودية

المستخلص العربي:

يمثل القرن العشرون حقبة الصراعِ السياسي والفكري مع الغرب ومشاريعه الاستعمارية من جهة، ومع حملات التغريب المنظمة للعالم المسلم من جهةٍ أخرى، وقد تصدى عددٌ من المفكرين المسلمين لنقد الحضارة الغربية وبيان وجه الخلل فيها، وقد تجلى في مجموع ما كتبوه في نقدهم منهجٌ فكري نقدي، نابعٌ من هدي الإسلام وتعاليمه، مشتملٌ على ذات خصائص رسالة الإسلام المتميزة، وقد أثمرت هذه الحقبة الكثير من المؤلفات النقدية حول الحضارة الغربية قدمها عددٌ من المفكرين المسلمين من العرب وغير العرب، وقد تتبعت أغلب هذه المؤلفات في محاولةٍ لبيان منهجِ النقد الحضاري للغرب عند هؤلاء المفكرين، من حيث الأسس والخصائص، مستشهدةً على ما توصلتُ إليه بهذا الشأن من أبرز كتاباتهم، مما يمكن معه رسم ملامح ذلك المنهج؛ ليكون نواةً في بناء موسوعةٍ نقديةٍ للفكر الغربي عبر قرنٍ من الزمان.

الكلمات الدلالية (المفتاحية):ـ النقد، الغرب، الحضارة الغربية، الفكر الإسلامي.

المستخلص الإنجليزي:

The foundations of Islamic criticism of Western civilization and its characteristics An applied study on the criticism of some thinkers of the twentieth century

****

The twentieth century represents the scene of political and intellectual conflict with the West and its colonial projects, on the one hand, and with Westernization campaigns organized for the Muslim world, on the other hand. A number of Muslim thinkers have addressed the criticism of Western civilization and clarifying its defects, following a rigorous critical approach based on the distinct guidance, teachings and characteristics of Islam, which has resulted in a lot of critical books on Western civilization by a number of Muslim thinkers, Arabs and non-Arabs.Most of these books have been traced in an attempt to explain the approach of civilized criticism of the West among these thinkers, in terms of foundations and characteristics, citing their findings in this regard, documented in their places in those books, which enable to draw the features of that approach to form the nucleus for building a critical encyclopedia of thought Western over a century.

Tags:

Criticism, the West, Western Civilization, Islamic Thought

المقدمة

مرّت العلاقة بين العرب والمسلمين والحضارة الغربية بظروف تاريخية وثقافية وسياسية واقتصادية واجتماعية مختلفة عبر السنين، ولا شك أن هذا التفاعل الحضاري بين الإسلام والحضارة الغربية قد ساهم في تكوين رؤية نقدية للحضارة الغربية سارت جنباً إلى جنب مع تيارات المقاومة السياسية للاستعمار وموجات الممانعة الفكرية لما نتج عنه من التغريب والتبعية وسائر ما أفرزه الانبهار الحضاري بالآخر. ويمثل النقد الإسلامي للحضارة الغربية –بأسسه الراسخة وخصائصه المتميزة– نموذجاً تطبيقياً لمعنى عالمية الإسلام وكونه رحمة للعالمين؛ إذ النقد في الأصل من النصيحة، والإسلام في جوهره نصحٌ وتصحيح، يقول الدكتور عماد الدين خليل: "هل أحدٌ أقدر من الإسلام على أن يهبنا زاد النقد الخصب الثّرّ الواضح البين المستقيم في دنيا اضطربت فيها مسالك السائرين وضاعت معالم الطريق؟!"(١) كما أن الموقف النقدي الإسلامي من الحضارة الغربية قد ارتبط في الفكر المعاصر بسؤال النهضة، وتم التأسيس له في سياق الهوية من حيث علاقة الأنا والآخر فكراً وتاريخاً وثقافةً وحضارة. ولعل الكثير من المواقف والرؤى والكتابات حول الحضارة الغربية كان حديث الساحة الفكرية على مدى قرن كامل مضى، مما يمكن أن يقال عنه إنه مشروع ذلك القرن. ولكن النقد الإسلامي المنهجي الرصين للحضارة الغربية بمكوناتها الفكرية والأخلاقية، ومنجزاتها الحضارية المتعددة قد جاء متناثراً في أفكار عدد من المفكرين ومؤلفاتهم، ولا يكاد يجمعها –فيما اطلعت عليه– كتابة تؤصل هذا المنهج لدى هذه الكوكبة من المفكرين، الذين اضطرتهم بعض الظروف السياسية والاجتماعية على أن تكون كتاباتهم –حتى وفاتهم– قصراً على البعض ممن حولهم والتي نالت بعد ذلك رواجاً ونشراً منقطع النظير أمثال كتابات الرئيس الراحل علي عزت بيجوفتش والمفكر الجزائري مالك بن نبي والشاعر الإسلامي محمد إقبال ونحوهم.

وعلى الصعيد الآخر ظهرت كتابات ومؤلفات منهجية قدمها أصحابها كأطروحات نقدية كما فعل الدكتور عبد الوهاب المسيري.

كما تناول البعض منهم هذا النقد في سياق الكشف عن الموقف من الحضارة الغربية والتفاعل مع موجة الاستعمار وحركات التغريب كما هو الحال في كتابات الدكتور

---

(١) فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر. عماد الدين خليل. ص: ١٨.

عماد الدين خليل والدكتور فريد الأنصاري والدكتور أنور الجندي والدكتور محمد البهي والدكتور محمد عمارة وغيرهم.

ولم يكن نقد الحضارة الغربية قصراً على المفكرين العرب، بل شمل المسلمين من غير العرب، أمثال المفكر الفرنسي المسلم روجيه جارودي، ومن قبله كتابات المستشرق الهولندي المسلم محمد أسد، ولاحقاً المفكر الألماني مراد هوفمان. وقد قمت منذ فترة طويلة باستقراء-أغلب- هذه المؤلفات والمقالات واستعراض النقد الموجه فيها للحضارة الغربية ومحاولة تأصيله وفق منهج النقد الإسلامي الرصين، مستعينة بالله تعالى راجية أن يكون في هذا الجهد العلمي تأكيداً لأصالة هذا المنهج وقدرته على التعاطي مع الواقع المعاصر بل والحاضر والمستقبل، وكيف لا وهو منهج مستوحى من هدي الإسلام خاتمة الرسالات السماوية إلى يوم الدين.

أهمية الموضوع وأهدافه:

١. الحاجة إلى بيان منهج النقد الإسلامي للحضارة الغربية.

٢. جمع شتات الكتابات المتفرقة في نقد الحضارة الغربية والتي قد تحسب كمواقف ورؤى خاصة لبعض المفكرين وبيان صلتها بالمنهج الإسلامي في النقد.

٣. تقديم نواة مرجعية لموسوعة إسلامية لنقد الحضارة الغربية.

الدراسات السابقة:

لم أجد -فيما اطلعت عليه- ما يتناول هذا الموضوع بحدوده الموضحة في المقدمة بشكل خاص، بينما بعض الكتابات حول نقد بعض المؤلفين، كما نشرت بعض المراجعات لعدد من المؤلفات عرضاً ونقداً من وجهة نظر الباحثين، ولكني لم أجد في بحثي فذ هذا الموضوع من يؤصل للمنهج الإسلامي في نقد الحضارة الغربية المعاصرة من خلال كتابات هؤلاء المفكرين كمنهج تأصيلي وتطبيقي في آن واحد.

خطة البحث:

يشتمل هذا البحث على مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة.

- المقدمة وتشتمل على أهمية البحث وأهدافه.
- التمهيد ويشتمل على التعريف بمصطلحات البحث (النقد، الأسس، الخصائص)
- التعريف بمفكري القرن العشرين وأسباب اختيارهم.

الفصل الأول: أسس النقد الإسلامي للحضارة الغربية وتطبيقاتها في كتابات بعض مفكري القرن العشرين وفيه خمسة مباحث:

- المبحث الأول: الأساس الفلسفي.
- المبحث الثاني: الأساس الأخلاقي.
- المبحث الثالث: الأساس الواقعي.
- المبحث الرابع: الأساس التاريخي.
- المبحث الخامس: الأساس المنهجي.

الفصل الثاني: خصائص النقد الإسلامي للحضارة الغربية وتطبيقاتها في كتابات بعض مفكري القرن العشرين وفيه خمسة مباحث:

- المبحث الأول: المرجعية والانفتاح.
- المبحث الثاني: الغائية.
- المبحث الثالث: الشمول والتوازن.
- المبحث الرابع: الموضوعية والإنصاف
- المبحث الخامس: الاتساق والاطراد.
- الخاتمة.
- فهارس المراجع.

التمهيد

التعريف بمصطلحات البحث

تعريف النقد لغة واصطلاحاً:

لـــغة: قال ابن فارس: النون والقاف والدال، أصلٌ صحيح يدلُّ على إبراز شيء وبروزه، ومن ذلك النقد في الحافِر، وهو تقشُّره، والنقد في الضِّرس: تكسُّره، وذلك يكون بتكشُّف لِيطه عنه، ومن الباب: نقد الدرهم، وذلك أنْ يكشف عن حاله في جودته أو غير ذلك [١] ويأتي النقد بمعنى كشف العُيوب، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: "إن نقدت الناس نقدوك"؛ أي: عبتهم واغتبتهم، من قولك: نقدت الجوزة أنقدها، ونقد الدرهم، ونقد له الدرهم؛ أي: أعطاه إيَّاه، ونقد الدراهم أي: أخرج منها الزيف، وناقدتُ فلانًا، إذا ناقشته بالأمر.[٢]

اصطلاحًا: النقد في حقيقته تعبيرٌ عن موقف كلي متكامل في النظرة إلى الفكرة بصورة عامَّةً، أو إلى بعضها خاصَّةً، يبدأ بالتثبت، ويعبرُ منه إلى التفسير والتعليل والتحليل والتقييم، في خطوات لا تُغنِي إحداها عن الأخرى، وهي متدرجةٌ على هذا النسق؛ كي يتَّخذَ الموقف نهجًا واضحًا، مؤصلاً على قواعد – جزئيَّة أو عامَّة – مؤيدًا بقوَّة الملكة بعد قوَّة التمييز."[٣] ويختلف مفهومُ النقد بحيثيَّات العلم الذي يخاضُ فيه، فنقد الأدباء والشُّعَراء غير نقد الفُقَهاء وأهل الفرق، ونقد الأصوليين غير نقد المحدِّثين؛ فلكلٍّ قواعدُه ومناهجُه، غير أنَّ المشترك بينها هو النظر في المقالة لبيان عُيوبها، وكشف نقائصها، ثم الحكم عليها بمعايير فنِّها، وتصنيفها مع غيرها. والمعايير والأحكام الصادرة تتفاوَتُ وتتغايَرُ بحسَب الفن الذي يمارسُ فيه النقد، وبحسَب النُّقَّاد وملكاتهم العلميَّة.

الألفاظ ذات الصلة بالنقد:

للنقد مفردات مُقاربة؛ مثل: التقييم والرُّدود، والمناظرات والمحاورات، والجدل والمباحثة، والمِراء والمناقشة، وإنْ كان لكلٍّ واحدٍ ما يُميِّزُه عن غيرِه من دواعي وأساليب وغايات ودوافع.

---

[١] مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، (٥٧٧/٢).

[٢] لسان العرب، ابن منظور(٢٥٤/١٤).

[٣] أنظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، ص:٥.

تعريف الأسس لغة واصطلاحاً:

جمع أساس، وهو في اللغة: أصلُ البناء، ومبتدأُ كل شيء. [١] وهذه المادة من الهمزة والسين تدل على الأصل والشيء الوطيد الثابت. [٢]وأسست دارًا إذا بنيت حدودها ورفعت من قواعدها [٣] والأُسُس في هذا البحث معناها: الأصولُ، أو القواعدُ العامة التي يَبني عليها النقادُ نقدَهم.

الألفاظ ذات الصلة بالأسس:

قد يأتي بمعنى الأسس بعض الألفاظ الأخرى مثل: (مَقاييس النقد) و(أُصول النقد) وكلها بمعنى واحد، وقد يُفَرَّق بينهما بأنّ الأُسس قواعد عامة، وأنَّ المقاييس اتجاه تَفصيلي مُعين في هذه الأصول؛ وعلى ذلك فمَقاييسُ النقد قريبةُ المعنى من أسس النقد، لكنها كثيرًا ما تُطلق على مذهبٍ نقديٍّ معينٍ، بخلاف أسس النقد أو أصوله فهي تُستعمل في العادة في المقاييس العامة التي لا تختصُّ بشيءٍ معين وهذا كلُّه تفريقٌ تقريبي، وإلا فالتقاربُ بين هذه المصطلحات واضحٌ، واستعمالُ بعضها مكان بعض كثيرٌ في كلام المعاصرين.[٤]

تعريف الخصائص لغة واصطلاحًا:

الخصائص هي السمات، وهي جمع سِمة، مصدر من وسم، وتعني العلامة.[٥] ومعنى سِمات النقد في هذا البحث: الخصائصُ والصفاتُ والعلاماتُ التي تُميز النقدَ الإسلامي عن غيره.

التعريف بمفكري القرن العشرين:

تم اختيار عدد من المفكرين الذين توفرت فيهم الأوصاف التالية:

١. لديهم عدد من المؤلفات حول الحضارة الغربية لا تقل عن ثلاثة مؤلفات.

٢. أغلب محاور تلك المؤلفات كانت نقدية ومقارنة مع الفكر الإسلامي.

---

[١] تهذيب اللغة، الأزهري،(٩٦/١٣).

[٢] معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، (١٤/١).

[٣] لسان العرب، ابن منظور، (٦/٦).

[٤] أنظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، ص: ١٣٠.

[٥] أنظر: المعجم الأدبي، د. جبور عبد النور، ص: ٢٨٣، ومُعجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش، ص: ٣٩٠.

أسماء المفكرين العرب:

تم اختيار سبعة مفكرين من العرب وهم كما يلي: بديع الزمان النورسي، مالك بن نبي، أبو الحسن الندوي، عبد الوهاب المسيري، عماد الدين خليل، أنور الجندي، محمد عمارة. وستأتي تراجمهم في سياق البحث.

أسماء المفكرين من غير العرب:

تم اختيار خمسة مفكرين من غير العرب وهم كما يلي: محمد أسد، محمد إقبال، علي عزت بيقوفتش، روجيه جارودي، عبد الواحد يحيى، وستأتي تراجمهم في سياق البحث.

الفصل الأول
أسس النقد الإسلامي للحضارة الغربية وتطبيقاتها
في كتابات بعض مفكري القرن العشرين

ويقصد بهذا الفصل رصد القواعد والمنطلقات والأصول التي تأسس عليها النقد الإسلامي للحضارة الغربية وانطلق منها وهي خمسة أسس تفصيلها في المباحث التالية:

المبحث الأول: الأساس الفلسفي:

نتج الفكرُ الإسلامي عن الرؤية الإسلامية للكون والحياة، وتتميز تلك الرؤية بخصائص متفردة تصبغ كل ما يصدر عنها من منجزٍ فكري أو عمليٍ بتلك الخصائص. وعلى الصعيد الآخر جاءت الحضارة الغربية نتاجاً لمجموعةٍ من الأسس الفكرية والفلسفات التي أثمرت هذه الحضارة بخصائصها الحالية، وقد كان لهذه الأسس الفلسفية أوفر الحظ والنصيب من مشروع النقد الإسلامي؛ حيث لم يتعامل الفكر الإسلامي مع الحضارة الغربية كمشروع حاضر، بل تعمّق في نقد جذوره والوقوف على أثر تلك الفلسفات العميقة فيه ليتوصل إلى النقد الموضوعي بناءً على ما انطلقوا منه، لا على مجرد ما أنجزوه.

أسباب النقد الإسلامي للأسس الفلسفية في الحضارة الغربية:

١. تعميق الرؤية الناقدة، فلكل أمة من الأمم أيديولوجياتها الخاصة التي تصدر عنها وتصوغ بها مفاهيمها وتحدد معالم حضارتها وتبرز القيم التي تعتنقها.

٢. سلامة الاستنتاج في الأحكام؛ لتكون الآراء مبنية على ما لا يمكن نفيه؛ لأن الأسس الفلسفية تورث عدداً من اللوازم التي لا تنفك عنها.

٣. يؤدي فهم الأصول الفلسفية للحضارة الغربية إلى فهمها كما هي، لا كما تبدو لنا.

وتتمثل أبرز الأسس الفلسفية للحضارة الغربية في الفلسفة المادية وما تبعها من الإلحاد والتمرد، ونبذ الأديان، وما آلت إليه في العصر الحديث من الليبرالية وما تبعها على الصعيدين السياسي والاقتصادي من الديمقراطية والرأسمالية. وقد تناول المفكرون الإسلاميون الأساس الفلسفي المادي بالنقد، وأكدوا على أثره في الحضارة الغربية وما ترتب عليه من آثار على المجتمع والفرد والأخلاق والحياة بشكل عام. وفي هذا البحث لن يتم نقد الفلسفة المادية؛ فذلك مما كتب فيه الكثير، وإنما غاية هذا البحث إثبات

ملامح المنهج النقدي لدى مفكري الإسلام في العصر الحديث وأنه قد اشتمل على نقد تلك الفلسفة، وإثبات ذلك بالشواهد من كتاباتهم، حيث لم ينقدوا الحضارة الغربية إجمالاً، بل أكدوا على فهمهم لجذورها وانطلقوا في نقدهم من أصولها الفلسفية وشواهد ذلك من كتابات المفكرين كثيرة، حيث كانت الفلسفة المادية حجر الأساس في النقد الموجه للحضارة الغربية فقد أدرك مفكرو الإسلام في القرن العشرين فساد هذه الفلسفة وأثرها في نتائج وتجليات تلك الحضارة التي بنيت عليها من خلال طرح عدد من اللوازم التي نتجت عن المادية وموقفها من الأديان وما أدت إليه من انتشار التمرد والإلحاد ونزع القداسة عن المعاني الغيبية وقصورها عن إجابة الأسئلة الوجودية مع عجزها عن تلبية حاجات الإنسان بشكل متوازن؛ فمن جهة ما آلت إليه المادية من الإلحاد ونبذ الأديان في الحضارة الغربية ما كتبه محمد أسد[١] حيث قال: "الحضارة الغربية لا تجحد الله في شدة وصراحة، ولكن ليس في نظامها الفكري موضع لله، ولا تعرف له فائدة، ولا تشعر بحاجة إليه".[٢] ويقول الدكتور عبد الوهاب المسيري[٣]: "وككلّ مشروع له مبادئ، أسس، وسائل وأهداف له مآلات أيضاً، هي عبارة عن نتائج نهائيّة غير متوقعة، ناجمة عن خلل في مبدأ ما ومن بين أهمّ المآلات التي آلت إليها الحداثة الغربية بمبادئها ومجالاتها نجد مآل نزع القداسة عن الإنسان والعالم انطلاقا من التّموضع الّذي يحتلّه الإنسان الغربيّ ضمن المرجعيّة الكامنة".[٤] وقد بيّن المسيري طغيان الفلسفة المادية في الغرب وتعاملها مع الإنسان كشيء مادي بحت فقال: "يتّضح أنّ المنظومة الحداثية، الغربيّة، أدّت في نهاية المطاف إلى إزاحة الإنسان عن المركز، وتفكيكه، ونزع القداسة عنه، واختَزاله في إطار المرجعية الكامنة بحيث يرد إلى الطبيعة/المادة، ويصبح إنساناً طبيعياً (مادياً)، غير قادر على تجاوز ذاته الطّبيعية المادية، ولا يتجاوز الطبيعة المادة؛ بحيث يسري عليه ما يسري على كلّ الظواهر

[١] ليوبولد فايس، (١٩٠٠–١٩٩٢ م) صحفي نمساوي يهودي، أسلم وتسمى بمحمد أسد،من أشهر مؤلفاته: الطريق إلى مكة، والإسلام في مفترق الطرق. للاستزادة أنظر: محمد أسد في الطريق إلى مكة. للشيخ صالح الحصين. ط مؤسسة الوقف الإسلامي.

[٢] الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، ترجمة: عمر فروخ ، ص: ٤١.

[٣] مفكر وعالم اجتماع مصري مسلم (١٩٣٨–٢٠٠٨م) وهو مؤلف موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، أحد أكبر الأعمال الموسوعية العربية في القرن العشرين ومن أشهر مؤلفاته: الحداثة وما بعد الحداثة بالاشتراك مع الدكتور فتحي التريكي، وكتاب الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان. للاستزادة أنظر: كتاب حواري في عالم عبد الوهاب المسيري، للدكتور عبد الحليم عطية وآخرون.

[٤] دراسات معرفية في الحداثة الغربية،عبد الوهاب المسيري، ص:٧٩.

الطّبيعية من قوانين وحتميات، وهذا يعني أنّ الإنسان يفقد إنسانيته المركبة، وتُنزَع عنه القداسة تماماً".[١] وممن نقد الفلسفة المادية التي قامت عليها حضارة الغرب الشاعر محمد إقبال[٢] حيث أشار إلى غياب المعنى والإنسان في ظل هذه الفلسفة فقال بهذا الصدد: "إن المدنيَّة التي تتحكَّم فيها الآلات وتُسيطر فيها الصناعة، تموت فيها القلوب، ويُقتَل فيها الحنان والوفاء، والمعاني الإنسانية الكريمة."[٣]كما يعتبر المفكر الجزائري مالك ابن نبي[٤] (الفلسفة المادية) من أهم خصائص الحضارة الغربية، وفي تناوله لهذه الحضارة في كتاباته، كان يسجل ملحوظاته، ويركز في تحليله على هذا البعد –المادية– في الحضارة الغربية. وقد امتاز تحليله للفلسفة المادية بالعمق حيث وضع يده على سريان المعاني المادية في الحضارة الغربية وذلك ضمن مستويات مختلفة:

– الميدان العلمي.

– الحياة الاجتماعية التي يظهر فيها سلوك الفرد الغربي.

– التعبير السياسي، بل وحتى في سياق التعامل الحضاري مع بقية الحضارات. لأن هذه الخاصية عنده تكاد تنظم كل الخصائص الأخرى، حيث تشكل أحد أهم الجوانب في كل خاصية من خصائص الحضارة الغربية ويصف مالك بن نبي الفرق بين الإيمان والمادية في الحضارتين الإسلامية والغربية عبر ضرب مثل لسعي الإنسان لملء الفراغ الكوني الذي ينتابه أثناء عزلته فيقول: "أساسًا هناك طريقتان لملء الفراغ، فإما أن ينظر المرء حول قدميه أي نحو الأرض (المادة) وإما أن يرفع بصرة نحو السماء (ما فوق المادة)"[٥] ويكمل بن نبي فيعقّب على الطريقتين فيقول: "الأولى تملأ وحدته بالأشياء (المادة) حيث يجمح بصره المتسلط لامتلاكها، والثانية تملأ وحدته بالأفكار (ما

---

[١] المرجع السابق.

[٢] محمد إقبال - ١٨٧٧) ١٩٣٨ (شاعر وفيلسوف، ولد في البنجاب من أسرة برهمية كشميرية الأصل ودرس اللغة الفارسية و العربية إلى جانب لغته الأردية، رحل إلى أوروبا وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة ميونخ في ألمانيا ، وعاد إلى وطنه وأصبح رئيسا لحزب العصبة الإسلامية في الهند ونادى بضرورة انفصال المسلمين عن الهندوس ورأى تأسيس دولة إسلامية اقترح لها اسم باكستان. للاستزادة أنظر: محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره. د. عبد الوهاب عزام.

[٣] ديوان جناح جبريل، محمد إقبال، ترجمة: جلال الحفناوي، مراجعة: محمد علاء الدين، العدد: ٥٦١، ص: ٤١.

[٤] مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي. (١٩٠٥–١٩٧٣م) ولد في قسنطينه بالجزائر، ودرس في فرنسا، أحد رُوّاد النهضة الفكرية الإسلامية في القرن العشرين، ويُمكن اعتباره امتدادًا لابن خلدون، نبه إلى ضرورة العناية بمشكلات الحضارة ومن أشهر كتبه الظاهرة القرآنية وشروط النهضة. للاستزادة أنظر: مالك بن نبي حياته وفكره. د. عبدالله العويسي.

[٥]مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ص:١٧.

فوق المادة) ويبحث عن الحقيقة بنظرة المتسائل، وهكذا ينشأ عبر الطريقتين نموذجان من الثقافة: ثقافة سيطرة ذات جذور تقنية، أو ثقافة حضارة ذات جذور أخلاقية وغيبية". [١]

وقد تنبه النقاد المسلمون إلى أن المادية التي تنكر المبادئ الدينية كمرجعية لا يمكن أن تكنّ احتراماً للآخر بل وتفتقد القدرة على الحوار الناضج مادامت تنبذ المرجعيات، يقول الفيلسوف رينيه جينون[٢] الذي أسلم: "إن حضارةً لا تعترف بأيّ مبدأ أسمى، وليست مؤسسة في الواقع سوى على إنكار المبادئ، هي منزوعةٌ من أيّ وسيلة للتفاهم مع الآخرين، لأن هذا التفاهم لكي يكون فعّالاً وعميقاً لا يُمكن أن يأتي إلا من أعلى، أيّ وبالتحديد ممّا ينقص هذه الحضارة المنحرفة وغير الطبيعية" .[٣] أما أبو الحسن الندوي[٤] فقد أفاض في نقد هذا الأساس الفلسفي للحضارة الغربية في عدد من المؤلفات حيث حلل هذا البعد المادي في تلك الحضارة مرجعاً إياه إلى جذورٍ يونانية ورومانية؛ فهو يرى أن كلتا الحضارتين لهما تأثيرها في الحضارة الغربية الحديثة خاصة النزعة المادية المغالية، وطغيان ذلك على البعد الديني، وبالتالي فالدين فاقد لتأثيره منذ زمن بعيد يمتد إلى الجذور الغائرة والممتدة إلى اليونان والرومان، الذين انعكست دياناتهم الوثنية في ميلهم إلى التجسيد للآلهة، وهو ما نزع فكرة القداسة عن الدين والإله من الضمائر والتشريعات. كما انتقد الندوي عددًا من المفكرين الغربيين الذين قامت على أكتافهم الرؤى المادية، خاصة "ميكافيللي" الذي وضع الأسس للفلسفة النفعية غير الأخلاقية، كما انتقد الثورة الفرنسية ١٧٨٩م لإشاعاتها الروح اللادينية في الحياة الغربية، كما انتقد كارل ماركس مؤسس المدرسة الشيوعية، وانتقد نظرية دارون في

---

[١] المرجع السابق.

٢) فيلسوف فرنسي (١٨٨٦-١٩٥١) أسلم وتسمى بالشيخ عبد الواحد يحيى، حصل على الليسانس في الآداب قسم الفلسفة من جامعة السوربون عام ١٩١٥، أثّر في العديد من الكتّاب والأعلام في عصره وبعد عصره، انتقل من فرنسا ليعيش في مصر الروحانية والإسلام، رضيَ بالعُزلة والابتعاد عن الأضواء وتفرّغ للكتابة والبحث. للاستزادة أنظر: مقالات من رينيه جينون، أ.د. زينب عبدالعزيز.

[٣] مقالات من رينيه جينون (الشيخ عبد الواحد يحيى)، أ.د. زينب عبد العزيز، ص:١١٦.

[٤] أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسن.(١٩١٤-١٩٩٩م) ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ولد في الولاية الشمالية بالهند ونشأ في أُسرة ذات أصل عربي عريق من أشهر مؤلفاته كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. للاستزادة أنظر: أبو الحسن الندوي. محمد علي شاهين.

في النشوء والارتقاء.[١] و لاشك أن هذه النظريات والمذاهب تمثل الروافد والأسس التي قامت عليها الفلسفة المادية الغربية المعاصرة. وقد تناول المفكر علي عزت بيجوفتش[٢] أيضاً هذا الجانب من الحضارة الغربية مؤكداً أن فلسفة المادية تنظر للإنسان في بعده المادي الجسدي ليكون أقرب للحيوان فيقول: "المادية تؤكد دائمًا ما هو مشترك بين الحيوان والإنسان، بينما يؤكد الدين على ما يفرّق بينهما وبعض الطقوس الدينية والمحرمات الدينية يُقصد بها فقط التأكيد على هذه الاختلافات. فكأن الدين يقول: " أنظر ماذا يفعل الحيوان وافعل عكسه؛ إنه يفترس فيجب أن تصوم، إنه يتسافد فيجب أن تتعفّف، إنه يعيش في قطيع فحاول أن تعيش متفرّدًا، إنه يسعى إلى اللذة ويهرب من الألم، فعليك أن تعرّض نفسك للمصاعب، باختصار: الحيوانات تعيش بأجسامها، فعليك أن تعيش بروحك".[٣]وقد أسهب بيجوفتش في كتابه الإسلام بين الشرق والغرب في نقض الفلسفة المادية والمقارنة بينها وبين ثنائية الإسلام وجمعه بين المادي والروحي في شتى المجالات وفكرة (الثنائية) لدى بيجوفتش كانت محوراً للمسيري رحمه الله في كتابه "رحابة الإنسانية والإيمان" حيث تناولها بالتوضيح مبيناً أوجه كمالها وشمولها مقابل الواحدية الغربية المادية التي تجعل المادة محور الكون.[٤]

إن ما سبق من اقتباسات يسيرة لبعض مفكري القرن العشرين ونقاد الحضارة الغربية من المسلمين وغيرهم، يؤكد أن أول أساس في منهجية النقد الإسلامي، هو انطلاقه من الأسس الفلسفية لتلك الحضارة وعلى رأسها الفلسفة المادية وما نتج عنها من الفلسفة الليبرالية الحديثة، ولهذا توجه نقد الكثير من المفكرين المسلمين لهاتين الفلسفتين تحديداً، كما كانت الحداثة المادية –بوجه عام– مشروعاً نقدياً كبيراً للمفكر عبد الوهاب المسيري.

---

[١] أنظر: مؤلفات الندوي عن الغرب مثل: الإسلام والغرب، الإسلام والمستشرقون، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، الصراع بين الإيمان والمادية، تأملات في سورة الكهف، حديث مع الغرب.

٢ أول رئيس جمهورية للبوسنة والهرسك (١٩٢٥-٢٠٠٣م) ناشط سياسي بوسني وفيلسوف إسلامي، مؤلف لعدة كتب أهمها الإسلام بين الشرق والغرب. للاستزادة أنظر: ترجمة محمد عدس في مؤلفات بيغوفتش.

[٣]الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفتش، ترجمة: محمد عدس، ص: ٦٧.

[٤] للاستزادة انظر: رحابة الإنسان والإيمان، المسيري، ص:١٢٥.

المبحث الثاني: الأساس الأخلاقي.

شُيدّت الحضارة الغربية على أساس القطيعة مع الدين، إثر الصراع المرير مع الكنيسة، الذي حدث منذ عصر الأنوار في أوروبا، فكان أن أنتجت تلك الفلسفات –بمرور الزمن– نمطًا من البشر يشْكون من الهزال الروحي، ويعانون من الشذوذ الأخلاقي، ويتأوهون من القلق واليأس، والتشظي واللاجدوى. ويمثل النقد الأخلاقي للحضارة الغربية أحد أهم أسس النقد الإسلامي في كتابات القرن العشرين، حيث يقول أبو الحسن الندوي : "إن فتوحات العلم الحديث لا يسع أي إنسان إنكارها، ولكنه عاجز تماماً عن إنشاء أفراد صالحين مؤمنين، وهذا أكبر هزائم الحضارة الغربية".[١] أما المسيري فقد تنوعت جهوده في نقد أخلاق الحضارة الغربية، ويمكن اختزال رؤيته في مقولة أنها "حضارة تعادي الإنسان" حيث جعلت الإنسان شيئا مادياً و أغفلت جانبه الروحي، وقد ركز المسيري بشكل خاص على نقد العنصرية في الأخلاق الغربية وحاول الكشف عن جذورها في حضارتهم، حيث يرى أن الكراهية والعنصرية تعود أساساً إلى كونها موقفاً ذهنياً فكرياً قبل أن تتحول وتصبح سلوكاً اجتماعياً وفعلاً ومتشدداً.

وتعود بعض البذور الثقافية التي أسست لفلسفة التمييز العنصري في الغرب، إلى كتابات ومواقف بعض الفلاسفة التنويريين الأوروبيين، الذين اعتقدوا أن الحياة مبنية على تعارض وتناحر الأجناس البشرية، أي صراع بين الأنواع المتحضرة ضد الأنواع المتخلفة، وتغاضوا عن حقيقة السيرورة التعددية للحضارة البشرية، وقاموا ببناء رؤيتهم الفلسفية على قاعدة حتمية التخلف البنيوي لجميع الثقافات الأخرى غير الأوروبية، وتم تقسيم الناس إلى بشر وأشباه بشر بحسب نظرية الانتخاب الطبيعي، مما وفّر البيئة لظهور النزعات العنصرية والأفكار اليمينية المتشددة لاحقاً في أوروبا، مثل النازية والفاشية والصهيونية، وأحدث فكراً قومياً شوفينياً، تسبب بقيام نزاعات إقليمية وأشعل حروباً عالمية. وبهذا يعلن المسيري أنه اكتشف الوجه الخفيّ للحداثة الغربيّة، وهو الوجه الدّاروينيي تحت شعار: "الصراع من أجل البقاء، والبقاء للأقوى"، استناداً إلى فلسفته الماديّة الّتي تدعو إلى العنف، العنصريّة والإيمان بالمادي فقط.[٢] أما المفكر

---

[١] الإسلام والغرب، أبو الحسن الندوي، ص:٢٧.

[٢] أنظر: دراسات معرفيّة في الحداثة الغربيّة، عبد الوهّاب المسيري، ص: ٣٥، ٣٦.

المسلم روجيه جارودي[1] فقد ألمح في كتاب له يُعد من أبرز مؤلفاته الأخيرة التي أثارت جدلاً طويلاً، وهو كتاب (أمريكا طليعة الانحطاط: كيف نواجه القرن الحادي والعشرين) إلى أن النزعة المركزية واستعمار التاريخ كما يعبّر هي فكرة جوهرية في تركيبة الحضارة الغربية؛ ويطلق جارودي على هذه المأساة مصطلح "الملحمة العنصرية" وهي ملحمة تُشكّل جوهر الثقافة الأمريكية المرسّخة في الكثير من أفلام العنف الاستعراضية المشهورة؛ لكن جارودي يسحب هذه السمة، أو الصفة الفارقة على كيان الحضارة الغربية كله، مستنداً على دراسة التاريخ ومقارنة الأبعاد والأسس المؤثرة في المضامين الروحية والفكرية والإنسانية، للحضارات البارزة في تاريخ البشرية. ومثله المفكر مالك بن نبي حيث أبرز هذا النقد الأخلاقي للعنصرية وجذوره في الحضارة الغربية فقال:" إن صورة الشرق في الذهن الغربي تتجلى من خلال عاطفة متعالية ومطلقة، تعبر عن شعور الغرب نحو نفسه ونحو الآخرين، وهذا التعالي المطلق ليس واقعاً خاصاً بطبقة معينة، إذ أن الفرد الأوروبي يحمل جراثيم هذه الكبرياء دائما لأنه يتلقاه من الجو العمومي الذي نشأ فيه منذ الطفولة، ويتكون فيه تصوره للعالم وللإنسانية، فهو يعتقد على وجه الخصوص، أن التاريخ والحضارة يبتدئان من أثينا، ويمران على روما، ثم يختفيان فجأة من الوجود لمدة ألف سنة، ثم يظهران من جديد بباريس في حركة النهضة ... أما قبل أثينا فليس شيء يذكر في ذهن هذا الفرد المشحون بالكبرياء ... الذي لا يرى بين أرسطو وديكارت إلا الفراغ ... إن هذه النظرة الخاصة للغربيين هي التي تشوه منذ اللحظة الأولى فلسفة الإنسان عندهم وبالتالي تشوه السياسة الغربية".[2]

ولم تكتف الحضارة الغربية بالخواء الروحي وتجريد الإنسان من إنسانيته، بل قامت بتأكيد حيوانيته وترسيخ هذه الحيوانية في حصر غاياته في ملذاته، فالفلسفة الغربية المادية ترسخ الأنانية والإيمان بالذاتية والمبالغة فيها والاستغناء عن الآخرين، وتيارات النفعية والمصلحة هي سياسة الغاية تبرر الوسيلة والصعود على أكتاف الآخرين.

---

[1] فيلسوف وكاتب فرنسي مسلم (١٩١٣-٢٠١٢م) انضمَّ إلى الحزبِ الشيوعي الفرنسي، ولكنّه طُرد من الحزبِ في عام ١٩٧٠. قدّمَ عددًا كبيرًا من الكتبِ خلالَ حياته، واعتنقَ الإسلامَ في عام ١٩٨٢. واتهم بمعاداة السامية لإنكاره أساطير الهولوكوست اليهودي. للاستزادة أنظر: الفيلسوف الفرنسي من الماركسية إلى الإسلام. إبراهيم العاتي.

[2] في مهب المعركة إرهاصات الثورة، مالك بن نبي، ص:١٦٧.

كما يبدو تركيز النقد الإسلامي للحضارة الغربية على نقد الانهيار الأخلاقي وموجة التحلل والحرية المطلقة في الغرب عبر ممارسة المتع الحسيه بكل حرية وبدون أي قيود وفتح باب حرية الإنسان على آخره ليفعل ما يحلو له وينقل إلى أرض الواقع كل خيالاته وتصوراته وأحلامه وأوهامه والتركيز على احتياجات الإنسان وغرائزه. ولا شك أن اختزال الإنسان في شهواته عدوانٌ على كرامته وإنسانيته وفي هذا يقول الدكتور أنور الجندي[١]:" والمعروف أن المذهب –يقصد المذهب المادي– قد تضاعفت آثاره حيث أضيف إليه نظرية التحليل النفسي لفرويد الذي قرّر أن تصرفات الإنسان كلّها هي نتاج جنسي ينبعث من حنايا الغرائز". [٢] ليعلن بعد ذلك رافضاً هذا الانحدار الأخلاقي الذي ولّده كبت ورهبانية المسيحية المحرفة بقوله: "إنّ للإسلام علم نفس خاصاً مختلفاً عن المفاهيم التي طرحتها بعض النظريات التي قامت على الخطيئة والخلاص وإذلال النفس بتحريم الطيبات، وكراهية الرغبات، وسد باب الغرائز". [٣]

المبحث الثالث: الأساس الواقعي.

تناول النقد الإسلامي للحضارة الغربية واقعَ تلك الحضارة وما آلت إليه، وهذا النقد الواقعي هو نقد باللوازم والثمرات والتطبيقات، ولهذا نجد في كتابات مفكري القرن العشرين العديد من النقد المنبثق مما آلت إليه حضارتهم المادية وأثمرته فلسفتهم وأسلوبهم في الحياة من ثمرات عانى منها عقلاؤهم وتعالت منها صيحاتهم. وممن تفنن في هذا النقد الواقعي المسيري الذي سلط الضوء على واقع الحداثة الغربية ومناقضتها لما تم التبشير به وكذبة الفردوس الموعود التي جاء بها عصر الأنوار، فيقول في معرض نقد مآلات القول بالنسبية وتقويضه لمعاني هامة في الحياة: "كما أنّ مقولة النّسبية الّتي كانت من المفروض أن تحرّر الإنسان، وتفسح له المجال لتأكيد فرديّته، أدّت إلى عكس ذلك تماما؛ حيث أن النسبيّة تنزع القداسة عن العالم الإنسان والطّبيعة، وتجعل كلّ الأمور متساوية. فقوّضت الإنسان/الفرد من الدّاخل وجعلت منه شخصيّة هشّة، غير قارة على اتّخاذ أيّ قرار، وإن كانت في الوقت ذاته قادرة على تسويغ أيّ

---

[١] أحمد أنور سيد أحمد الجندي، (٢٠٠٢- ١٩١٧) أديب ومفكّر إسلامي مصري اهتم بوضع منهج إسلامي متكامل لمقدمات العلوم والمناهج، وله مؤلفات تزيد على ٣٠٠ كتاب،من أشهرها أخطاء الفلسفة المادية. للاستزادة أنظر: الموقع الخاص به على شبكة الإنترنت: http://anwaralgendi.com/.

[٢] أخطاء المنهج الغربي الوافد في العقائد والتاريخ واللغة والأدب والاجتماع، أنور الجندي، ص: ٢٨٠.

[٣] دراسات إسلامية معاصرة، أنور الجندي، ص: ٣٠.

شيء، وكلّ شيء".[١] وفي موطن آخر يذكر المسيري وهم المركزية الإنسانية في طروحات الحداثة الغربية وأن الواقع التطبيقي أثبت غير ذلك فيقول: "فبدلاً من مركزية الإنسان في الكون، تظهر مركزية الإنسان الأبيض في الكون و بدلاً من الدفاع عن مصالح الجنس البشري بأسره يتمّ الدفاع عن مصالح الجنس الأبيض، وبدلاً من ثنائية الإنسان والطبيعة، وأسبقية الأوّل على الثّاني تظهر ثنائيّة الإنسان الأبيض من جهة، مقابل الطبيعة/المادة وبقية البشر الآخرين من جهة؛ و يصبح همّ الإنسان الأبيض هو غزو الطبيعة المادية والبشرية و توظيفها لحسابه، و استغلالها بكلّ ما أوتي من إرادة وقوّة، و هكذا تحوَّلت الإنسانية الهيومانية الغربية إلى إمبريالية. بمختلف أشكالها العنصريّة، و تمّ من خلالها تصدير نموذج بشري واحد إلى العالم و تصنيفه بمنزلة المتفوّق و الأقوى، أو السوبرمان، حتى في لون بشرته". [٢] ويمارس الدكتور محمد عمارة [٣]كذلك هذا النقد الواقعي على الحضارة الغربية فيقول: "إنّ المتمعّن في مسار الحداثة الغربيّة سرعان ما يكتشف أنّها أحدثت انقلاباً على المرجع النّهائيّ أو المطلق، والّذي نعبّر عنه نحن في ثقافتنا الإسلاميّة بـ**الله**، حيث انقطعت الصّلة بين الله والإنسان، هذا التحوّل يُعتبر من أهمّ نتائج و مآلات الحداثة المشروع التحديثي المادي الغربيّ". [٤]

المبحث الرابع: الأساس التاريخي.

مرّت الحضارة الغربية في تاريخها الطويل بعدد من المنعطفات والصراعات قبل أن تصل إلى ذروة السيطرة والاستعمار ثم التقسيم والانحسار فيما بعد الحربين العالميتين، ثم العودة إلى الهيمنة من جديد من خلال العولمة، ولا شك أن هذه التحولات التاريخية قد ألقت بظلالها على موقفها من العالم الآخر أو الثالث أو النامي على اختلاف في التسميات؛ حيث أثرت الصراعات التاريخية مع المسلمين ثم مع الممالك الأوروبية

---

[١] رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، عبد الوهاب المسيري، ص: ١٩٥

[٢] دراسات معرفية في الحداثة الغربية، عبد الوهاب المسيري، ص:٧٩.

[٣] مفكر إسلامي مصري (١٩٣١-٢٠٢٠م)، ومؤلف ومحقق وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، وعضو هيئة كبار علماء الأزهر، وعضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر. من أشهر مؤلفاته: الخطاب الديني بين التجديد الإسلامي والتبديل الأمريكاني، والغرب والإسلام _أين الخطأ..وأين الصواب. للاستزادة أنظر: الموقع الرسمي للدكتور رحمه الله على شبكة الإنترنت: http://www.dr-emara.com/.

[٤] مستقبلنا بين التجديد الإسلاميّ والحداثة الغربية، محمّد عمارة، ص: ٣٩.

ذاتها على فكر الغرب وطبعت فلسفته بالاستعلاء والهيمنة وافتراض الذات كنموذج أعلى للشعوب، والذي يلزم منه احتقار الآخر بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وقد تناول النقاد المسلمون هذا الجانب من الحضارة الغربية بالنقد، مؤكدين أن تاريخ الغرب كان تاريخاً مليئاً بالدموية والصراعات ولم يكن نموذجاً مثالياً ليتم تمريره للإنسانية جمعاء، كما لم تكن النزعة الاستعلائية وسياسة الهيمنة محل نقد المسلمين فقط بل نقد المنصفين من الغربيين أنفسهم حيث عرض كتاب "الحضارة الغربية، الفكرة والتاريخ" لتوماس باترسون[١] تاريخ نشأة فكرة الحضارة عند الغرب، وكيف أن الغرب اختلق الفكرة بهدف تأكيد التمايز بينه كجنس أبيض "متحضر" وبين بقية العالم كأجناس وأعراق "برابرة" و"همج". وقد اختلق الغرب هذا التمايز ليبرر حملاته الاستعمارية العدوانية ضد الشعوب الأخرى، سواء لاستعمار البلاد أو للاتجار في أهلها رقيقًا، ووجد في هذا الفهم مبرراً يبرئ نفسه من آثامه، بل كما اعتاد أن يدعي دائمًا أنه استعمر هذه الشعوب لينقلها إلى الحضارة، أي لمحاكاة الغرب وإن كانت في نظره ونظرياته أعجز عن ذلك بحكم طبيعتها وجبلّتها، ويرى البعض أن لمفكري الغرب الكبار في عصر التنوير آراء تاريخية صادمة جعلت الغرب الحديث ذا نزعة قومية مركزية ولعل من أبرز الأمثلة على الفكر الذي تتحكم فيه النزعة المركزية الأوروبية زعم هيغل أن أفريقيا لا تشكل حضارة تاريخية على مقاييس الحضارة عنده[٢]، ثم زعم ماركس بعده بسنوات أن الهند ليس لها تاريخ، وأنّ من مآثر الاستعمار البريطاني أنه سَيُدْخِلُ شبه القارّة الهندية في التاريخ الأوروبي! [٣] إن مفهوم النقد الحضاري من خلال الأساس التاريخي لا يعني اتخاذ موقف عدائي من الحضارة الغربية، ولكن يعني في الأساس عدم تقبل ما تطرحه الحضارة الغربية دون نقاش وجدل، نظرًا لاختلاف السياقات التاريخية التي نشأت فيها الأفكار والحلول الغربية عن السياقات والمشكلات

[١] أستاذ علم الأنثروبولوجيا في جامعة تمبل في الولايات المتحدة الأمريكية، من أبرز الرافضين لفكرة المركزية الغربية. للاستزادة: أنظر مقدمة المترجم شوقي جلال لكتابه"الحضارة الغربية، الفكرة والتاريخ" ص٢.

[٢] الحضارة الغربية، الفكرة والتاريخ. توماس باترسون. ترجمة شوقي جلال، ص: ٨٢ وما بعدها. وللمزيد من الاطلاع حول الموضوع يمكن الرجوع إلى كتابات هيغل ومنها: محاضرات في فلسفة التاريخ: الجزء (١) "العقل في التاريخ"، والجزء (٢) "العالم الشرقي"، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام.

[٣] دافع ماركس عن الاستعمار البريطاني للهند في سلسة مقالاته في صحيفة نيويورك دايلي تريبيون، ١٨٥٠ م، أنظر: موسوعة ستانفورد للفلسفة، ترجمة: زينب الحسامي، مراجعة: أحمد المرشود.

التاريخية في الواقع العربي والإسلامي؛ فمنذ القدم والثقافة الغربية محملة بأوهام كثيرة تجعل من الإسلام عدواً تاريخياً وتقليدياً للغرب، وليس مصدر هذه الأوهام دينياً فحسب؛ بل أضيفت إليه وعلى مر الأيام والتاريخ، عوامل سياسية واقتصادية زادت في أثر هذا العامل الديني وجعلته يتخذ شكل خرافة ضخمة تستقر في أعماق الوعي الغربي حتى أضحت فكرة الصراع هي منطلق العلاقة بين الحضارة الغربية وغيرها وتبنى بعض مثقفيهم نظرية صراع الحضارات كنموذج تاريخي لا مفر منه، أما التصور الإسلامي فلا يكرس الصراع كقانون تاريخي مطلق كما تقدمه فكرة هنتنغتون[١]، ولكن الصراع في التصور الإسلامي بمعنى التدافع ليس إلاَّ سنّة واحدة من سنن الاجتماع البشري إلى جانب سنن الله الأخرى، كما أنه له منطقه المختلف عن مفاهيم الصراع الأخرى، وقد تناول المفكرون المسلمون هذا الجانب من الحضارة الغربية بالنقد وكان أساساً للكثير من الطروحات التي تؤكد عمق التأثير التاريخي في نظرة الحضارة الغربية للحضارات الأخرى. كما صدرت كتب نقدية مستقلة في موضوع الإمبريالية الغربية وسعي الغرب ليكون القرن الحادي والعشرين قرن العولمة على النموذج الأمريكي وقد تناول الدكتور محمد عمارة هذه الفكرة باستفاضة في كتابه "بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية"، متخذاً من هذا الأساس التاريخي الذي سيطرت عليه فكرة الصراع والهيمنة مدخلاً للمقارنة بين الإسلام والحضارة الغربية، ومن قبله تناولها جارودي، والندوي، في عدد من مؤلفاتهم، أما الدكتور عماد الدين خليل [٢] فقد كرس أغلب مؤلفاته حول فكرة الصراع الحضاري وموقف الإسلام منها[٣] والشواهد على هذا لا تنتهي وليس محل هذا البحث الاستقصاء وإنما ضرب المثل؛ لتوكيد هذا الأساس في المنهج النقدي الإسلامي للحضارة الغربية، يقول جارودي عن الإسلام وخلوه من نزعة الغطرسة الغربية:" أما الإسلام فهو تلك النظرة إلى الله والعالم والإنسان التي

---

[١] صمويل فيليبس هنتجتون. (١٩٢٧-٢٠٠٨م)، عالم وسياسي أمريكي وأستاذ في جامعة هارفارد، عرف بأطروحته عن صراع الحضارات والتي تشير إلى أن الصراع العالمي لن يكون على أساس عرقي أو اقتصادي بل على أساس حضاري وديني. للاستزادة أنظر: نقض نظرية صدام الحضارات. محمد السعدي، مجلة رأي وفكر سنة ٢٠٠٧ عدد ٢٥٠٤-١١.

[٢] مفكر عراقي وباحث علمي معاصر حاصل على الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، للاستزادة أنظر: أعلام الموصل في القرن العشرين. عمر محمد الطالب. نسخة الكترونية.

[٣] أنظر للمؤلف: رؤية إسلامية في قضايا معاصرة، كتاب الأمة، الدوحة-١٩٩٥، والإسلامية والوجه الآخر للفكر. الغربي، مؤسسة الرسالة، ونظرة الغرب إلى حاضر الإسلام ومستقبله، دار النفائس.

تفرض على العلوم والفنون وعلى كل إنسان وكل مجتمع فكرة بناء عالم بشري بشكل لا يقبل التجزئة منذ القرن السابع، وبإمكانه أن يقدم إجابة على تساؤلات وقلق حضارة غربية أظهرت في أربعة قرون أنها قادرة على حفر قبرٍ على مستوى العالم، وأن تضحي بالبشر لتهدم ملحمة بشرية منذ مليونين من السنين". [1]

المبحث الخامس: الأساس المنهجي.

يتمثل الأساس المنهجي في نقد الحضارة الغربية في انتقاد المفكرين المسلمين للمنهج الغربي في معرفته وعلاقته بالإسلام، حيث اعتمد الغربيون في تكوين صورة الإسلام لديهم على كتابات المستشرقين، حيث تمثل الحضارة الإسلامية جانباً كبيراً من اهتمام علماء الغرب ومفكريه، بدءاً من القرن العاشر الميلادي ولمدة قرنين من الزمان خصوصاً بعد أن نشطت حركة النقل والترجمة من العربية إلى اللاتينية وغيرها وفي أثناء هذا ظهر علم الاستشراق الذي يعتني بدراسة الغرب للشرق بكل مكوناته ومقوماته، وقد تعددت اتجاهات المستشرقين في أغراض تلك الدراسات، من أغراض علمية محايدة إلى عملية موجهة توجيهاً أيديولوجياً معيناً يخدم أغراضاً بعينها؛ اقتصادية أو عسكرية أو استعمارية أو دينية، وفي القرن التاسع عشر بدأ الاتجاه العقدي للاستشراق حيث أمسكت بزمامه الأيديولوجيات الاستعمارية وكان من هؤلاء المستشرقين منصرون، أخذوا يختارون الأشياء التي تثير الأوروبيين على المسلمين. وجاء من بعدهم من المستشرقين من سلكوا مسلكهم وحذوا حذوهم ولم يسلكوا مسلك البحث النزيه المجرد، بل كانوا يضعون الاتهام أولاً ثم يبحثون عن الأدلة التي تقوي هذا الاتهام، فأقبل هؤلاء على الاستشراق لأسباب دينية، وهي محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك في قيمته وإثبات فضل اليهود على الإسلام بادعاءات أن اليهودية هي مصدر الإسلام الأول وغيرها من الشبهات التي تصدى لها علماء الإسلام بالرد والتفنيد.

وقد توجه نقد مفكري القرن العشرين إلى نقد هذا الأساس المنهجي في نظرة الغرب للمسلمين وأفاضوا في ذكر الأخطاء المنهجية التي وقع فيها المستشرقون ومن ثمّ فلا يصح اعتبار مقولاتهم مصدراً نزيهاً لبناء فكرة حقيقية عن الإسلام وأهله، وهذا بلا شك لا يعني أن المفكرين المسلمين لم يفرقوا بين ممارسات هؤلاء المستشرقين ولم ينصفوا من أنصف منهم، بل تعاملوا معهم بالعدل القويم وقد ألف الندوي كتاباً كاملاً في

[1] الإسلام دين المستقبل. جارودي. ترجمة: عبد المجيد بارودي، ص: ٢٤.

هذا بعنوان: الإسلام والمستشرقون، و خصص في كتابه الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية فصلاً كاملاً عن نقد هذا الأساس المنهجي لدى المستشرقين. [1] لقد نادى عددٌ من مفكري القرن العشرين بضرورة رفع الغطاء الذي وضعه المستشرقون على العيون الغربية، ومحاكمة طروحاتهم بمنهجية علمية محايدة ليظهر الكم الهائل من خلط الأوراق، ومحاولات ظاهرها السلام، وباطنها العداوة والبغضاء للشرق عامة وللإسلام وحضارته خاصة، فضلاً عن مجانبة الكثير منها للحقيقة والصواب، فالاستشراق –في أغلب طروحاته– مسئولٌ عن تكوين وتشكيل وتأصيل موقف الغرب المتعصب ضد الإسلام وحضارته، حتى قال الدكتور عماد الدين خليل حول أبحاث النبوة في الاستشراق بأنها: "ليست أبحاثا علمية أو موضوعية بحال وإنما ذلك السيل المنهمر من الشتائم والسباب". [2]

كما تنبه النقاد المسلمون إلى خلل منهجي آخر، وجد لدى عدد من الكتاب الغربيين الذين قد لا ينتمون إلى المدارس الاستشراقية، ولكنهم مارسوا خللاً منهجياً آخر، وهو التحيز المسبق، ولا شك أن التحيز المسبق ينافي الموضوعية، كما لا يقل خطراً عن نتائج الاستشراق؛ لأنه بُني في الأصل على مثله، يقول المستشرق محمد أسد رحمه الله: "صورة مشوهة للإسلام وللأمور الإسلامية تواجهنا في جميع ما كتبه مستشرقوا أوروبه ".[3] وقد يطول الحديث عن أسباب التحيز المسبق في النظرة إلى الإسلام وأهله –وليس هذا مجاله– غير أن عدداً من مفكري القرن العشرين أشار إلى بعض أسباب ذلك مبيناً أن من أهمها أثر وسائل الإعلام الغربية في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، وإلصاق التهم بهم، وبناء صورة ذهنية سلبية بسبب تحكم اليهود وسيطرتهم على وسائل الإعلام وبالتالي تشويه الصورة النمطية للمسلم والحضارة الإسلامية. وكانت كتابات الندوي والمسيري وأنور الجندي ومحمد عمارة وغيرهم تشير إلى وجود هذا التحيز المسبق تجاه قضايا الإسلام وأهله وأسبابها.

---

[1] أنظر: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، الندوي، من ص: ١٨٦–١٩٨.

[2] المستشرقون والسيرة النبوية، عماد الدين خليل، (١٩/١)، وللاستزادة حول هذه الآراء انظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي: ص ٥٠٧– ٥٢١، الإسلام على مفترق الطرق،ليوبولد فايس (محمد أسد) : ص ٦٠ فما بعد، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، عمر فروخ ومصطفى الخالدي ، تحت شمس الفكر، توفيق الحكيم: ص ١٨ وما بعدها.

[3] الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، ص: ٥٤.

الفصل الثاني
خصائص النقد الإسلامي للحضارة الغربية
وتطبيقاتها في كتابات بعض مفكري القرن العشرين

المبحث الأول: المرجعية[١] والانفتاح.

تميزت كتابات مفكري القرن العشرين حول الحضارة الغربية بالتفاعل والانفتاح على الحضارة الغربية، لكنه الانفتاح المنضبط بالمرجعية الإسلامية المتميزة بأصالتها واعتزازها بهويتها الإسلامية رغم ما وصلت إليه هذه الحضارة في القرن العشرين من التأخر أو الانحطاط كما يراه البعض.

لقد نبعت هذه الكتابات من رؤية منفتحة ومنضبطة في آن واحد، تجمع بين الاعتراف بالداء والانضباط في البحث عن الدواء دون تغريب أو تمييع للهوية، ومن تلك المقولات التي تؤكد هذه الخاصية ما كتبه محمد إقبال وهو يرفض التجديد بمعنى تبعية الغرب، ويدعو المسلم إلى الاعتزاز بشخصيَّته وكِيانه، فيقول : "إن الذي يأتي بالجديد في هذا العالم الذي يتجدَّد دائمًا، هو نقطة الدائرة التي يطوف حولها الزمان، لا تُعطِّل شخصيتَك أيها المسلم بالتقليد الأعمى، واحتفظ بكرامتك؛ فإنها الجوهر الفَرْد، إن التجديد بمعنى التغريب لا يَليق بأمة لا تُفكِّر إلا في الدَّعة والترف، إنني أخاف أن تكون الدعوة إلى التجديد إنما هي حيلة وانتهاز لفرصة تقليد الغرب".[٢]

كما دعا مالك بن نبي إلى الانفتاح الإيجابي، وإدراك العولمة وتأثيرها على العلاقة بين الإسلام والغرب فقال: "إذا كان القرن العشرين قد تميز بتقريب المسافات، واتجاه البشرية نحو التوحد، في مصيرها، وفي علاقاتها، فإن المثقف المسلم نفسه ملزم بأن ينظر إلى الأشياء من زاويتها الإنسانية الرحبة، ويرتقي إلى إطار الحضور العالمي، وعيًا وإنجازًا، حتى يدرك دوره الخاص ودور ثقافته في هذا الإطار العالمي".[٣]

و لا شك أن من الانفتاح عدم التعامل مع الغرب على أنه كتلة واحدة أو فكرة وسياسة ممتدة ومدّ جسور الحوار ما أمكن، وفي هذا الصدد يقول المفكر بديع الزمان

---

[١] تعني المرجعية: وجود مرجع ثابت ونقي للتحاكم إليه والانطلاق منه في كل شيء وهو بالنسبة للفكر الإسلامي يعني (الوحي)، أنظر: المرجعية في المفهوم والدلالات، سعيد ناصر الغامدي، مركز البحوث والدراسات.

[٢] روائع إقبال، الندوي، ص: ٧٤.

[٣] مشكلة الثقافة، مالك بن نبي، ترجمة: عمر مسقاوي، ص: ١٦.

النورسي[1]: "لابد أن ننبه إلى أن أوروبا اثنتان، إحداها: هي أوروبا النافعة للبشرية، بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأدّت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية، بما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والإنصاف،فلا أخاطب-في هذه المحاورة هذا القسم من أوروبا؛ إنما أخاطب أوروبا الثانية تلك التي تعفّنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفسدت بالمادية الحسية، وحَسِبتْ سيئات الحضارة حسنات لها، وتوهّمت مساوئها فضائل، فساقت البشرية إلى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة ". [2]

وزاد الأمر وضوحًا في موضع آخر، فقال رحمه الله: "إن أوروبا اثنان: أحدهما :نافع للبشر باستفادته من الدين العيسوي والمدنية الإسلامية، أظهر بإحسان الله ما يستريح به البشر في هذه الحياة ...وأوروبا الثانية خالفت الأديان السماوية واستندت إلى الفلسفة الطبيعية المادية وغلبت سيئات المدنية حسناتها، وصارت سبباً لمشقة أكثر البشر وشقاوتهم، فاني أخاطب هذا القسم الثاني". [3]

كما دعا مالك بن نبي إلى "معرفة الغرب" واتخاذ موقف علمي منه وتطوير خبرات وآليات للتعامل مع الحضارة الغربية بما يحقق لنا التميز الحضاري الذي نريده وفي الوقت نفسه نبني مع الغرب علاقات حضارية قائمة على الاستفادة والإفادة وفق معايير حضارية إسلامية. ومن هنا فإن مالك بن نبي قام بعملية نقدية للذين ينظرون إلى مشكلة العالم الإسلامي بسطحية ومعزل عن التيار العام للإنسانية، والقانون الذي يضبط انتقال الحضارة في شروطها النفسية والاجتماعية. ويعبر عن ذلك بقوله: "هذه الملاحظات تدفعنا إلى أن ننتقد مسلك بعض الباحثين حين ينظرون إلى ظاهرة (الحضارة) منفصلة عن ظاهرة (الانحطاط)، وإن العالم الإسلامي لفي حاجة ماسة في هذه النقطة إلى أفكار واضحة تهدي سعيه نحو النهضة، ولهذا فإن مما يهمنا في المقام الأول أن نتأمل الأسباب البعيدة التي حتمت تقهقره وانحطاطه". [4]

ولتأكيد الأصالة والمرجعية والاعتزاز بالهوية، يؤكد مالك بن نبي أنه "لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج، مغفلاً مكان أمته ومركزها، بل يجب عليه أن تنسجم

---

[1] عالم مسلم كردي ولد في فترة الخلافة العثمانية (١٨٧٧-١٩٦٠م) وينسب إلى قريته نورس في تركيا شرق الأناضول، له سلسلة رسائل النور، للاستزادة أنظر: بديع الزمان سعيد النورسي. للشيخ محمد بن موسى الشريف .

[2] اللمعات، بديع الزمان النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص: ٧١٣.

[3] المرجع السابق.

[4] وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ص:٢٨-٢٩.

أفكاره، وعواطفه، وأقواله، وخطواته مع ما تقتضي المرحلة التي فيها أمته، أما أن يستورد حلولاً من الشرق أو الغرب، فإن ذلك تضييعًا للجهد، ومضاعفة للداء، إذ كل تقليد في هذا الميدان جهل وانتحار". (١)

وقد أكد على هذه الخاصية عند مفكري القرن العشرين أبو الحسن الندوي في حديثه عن الشاعر محمد إقبال حين قال: "إن إقبالاً من أولئك الرجال المعدودين الذين خاضوا بحرَ التعليم الغربي فلم يخرجوا من قعره سالمين فقط، بل وقد جاؤوا معهم بُدررٍ كثيرة، وازدادوا إيمانًا بخلود الإسلام ومُضمراته الواسعة، وازدادوا ثِقة بأنفسهم، ولو كان من الصعب أن يُحكَم على إقبال أنه لم يخضع للتعليم الغربي والفلسفة الغربية في قليل أو كثير، إن فَهْمه للدين يُطابِق الكتاب والسنة وفَهْم السلف تمامًا، ولكن الذي لا مرية فيه أنه لم يَنصهِر في بوتقة الغرب، كما انصهر الآلاف من معاصريه، وحُقَّ له أن يُنشِد في هذه المناسبة شعره الذي معناه: كسرت طلسم العصر الحاضر، وأبطلت فكره، التقطت الحبة، وأفلت من شبكة الصياد، يشهد الله أني كنت في ذلك مُقلِّدًا لإبراهيم، فقد خضتُ في هذه النار واثقًا بنفسي، وخرجت منها سليمًا محتفظًا بشخصيتي". (٢)

ومن أبرز من حمل راية التوازن بين الانفتاح مع المرجعية والتميز في الهوية وجعلها حاكمة على اختياراته محمد أسد حين قال: " وإن أحدنا يستطيع دائماً أن يتقبل مؤثرات إيجابية جديدة من مدنية أجنبية ما، من غير أن يهدم مدنيته ضرورة، والنهضة الأوروبية أحسن مثل في هذا الباب، فقد رأينا كيف أن أوروبا تقبلت المؤثرات العربية فيما يتعلق بالعلم وأساليبه عن طيبة خاطر، ولم تضح باستقلالها العقلي أو البديعي على الإطلاق". (٣)

ويقول جارودي في هذا الصدد مؤكداً هذه الخاصية ومؤصلاً إياها كصفة من صفات الإسلام ذاته:

"أظهر الإسلام شمولية كبرى في استيعابه لسائر الشعوب ذات الديانات المختلفة، فقد كان أكثر الأديان شمولية في استقباله للناس الذين يؤمنون بالتوحيد وكان في قبوله

---

(١) شروط النهضة، مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، وعمر مسقاوي، ص: ٤٧–٤٨

(٢) روائع إقبال، الندوي، ص: ٧٧–٧٨.

(٣) الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، ص: ٨٢.

لأتباع هذه الديانات في داره منفتحًا على ثقافاتهم وحضاراتهم، والمثير للدهشة أنه في إطار توجهات الإسلام استطاع العرب آنذاك ليس فقط إعطاء إمكانية تعايش نماذج لهذه الحضارات، بل أيضا إعطاء زخم قوي للإيمان الجديد: الإسلام، فقد تمكن المسلمون في ذلك الوقت من تقبل معظم الحضارات والثقافات الكبرى في الشرق وأفريقيا والغرب وكانت هذه قوة كبيرة وعظيمة له، وأعتقد أن هذا الانفتاح هو الذي جعل الإسلام قويا ومنيعا"[١].

المبحث الثاني: الغائية.

تمثل الغائية أبرز خصائص النقد الإسلامي للحضارة الغربية. والمقصود بالغائية: أحد المبادئ العقلية التي تؤكد أن لكل شيء هدف وغاية، فالنقد الإسلامي له غايات نبيلة ينطلق لتحقيقها باستعمال النقد ويتوصل إليها من خلاله، والنقد في الإسلام مرهون بنبل الغايات أما الاعتراض لمجرد الاعتراض فليس بممدوح، يقول ابن تيمية:" ومن المعلوم أن الاعتراض والقدح ليس بعلم ولا فيه منفعة، وأحسن أحوال صاحبه أن يكون بمنزلة العامي، وإنما العلم في جواب السؤال". [٢] كما أن النقد في الإسلام ليس مجرد اعتراض بل يجب أن يتضمن معنىً أو علماً أو حكمة، لأن مجرد الاعتراض بلا معنى هو سفسطة عبثية لا فائدة منها وتضييع لقيمة النقد المعرفية، وقد تنوعت غايات النقد الإسلامي للحضارة الغربية في عدة أغراض منها:

١. بيان فساد أصولها الفلسفية وقصور بعض مناهجها في العلم والمعرفة.
٢. بيان تناقضها وعجزها عن التوازن بين شقي الإنسان المادي والروحي.
٣. بيان تخبطها الواقعي وسوء واقعها الاجتماعي والأخلاقي.
٤. التحذير من عواقب الانسياق التام والتقليد الأعمى.
٥. إعادة روح العزة وتوضيح المنهج السليم في التفاعل الحضاري الإيجابي بين الغرب والمسلمين.
٦. رفع الغشاوة عن حالة الانبهار الحضاري بالغرب.

ولتأكيد هذه الغائية النقدية في كتابات المفكرين في القرن العشرين أورد عدداً من الشواهد مما كتبوه بهذا الشأن، حيث يؤكد محمد أسد الذي كان شاهداً على بدايات هذا

---

[١] الإسلام دين المستقبل. جارودي. ترجمة: عبد المجيد بارودي، ص: ١٢٠.

[٢] الفتاوى،ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم، (٢٧/٤).

الاندماج الثقافي على ضرورة النقد والفحص الثقافي للحضارة الغربية وغاياته فيقول: "فالإسلام بخلاف سائر الأديان ليس اتجاهاً روحياً يمكن تقريبه من الأوضاع الثقافية المختلفة، بل هو فلك ثقافي مستقل، ونظام اجتماعي واضح الحدود، فإذا امتدت مدنية أجنبية بشعاعها وأحدثت تغييراً في جهازنا الثقافي، كما هو الحال اليوم، وجب علينا أن نتبين لأنفسنا إذا كان الأثر الأجنبي يجري في إمكان اتجاهاتنا الثقافية، أو يعارضها؟ وهل يفعل في جسد الثقافة الإسلامية فعل المصل المجدد للقوى أو فعل السم؟". [١]

كما مارس المفكرون المسلمون نقد الحضارة الغربية على أساس من غاية النصح والبلاغ الذي ينطلق من عالمية الإسلام، وأطلقوا صيحاتهم للعالم الغربي لإنقاذ نفسه من مآزقه المتعددة التي أنتجتها ماديته الحديثة فحين أشار الشاعر محمد إقبال إلى فساد مقومات الحضارة الغربية ونبه إلى خطرها على المجموعة الإنسانية وخطرها توجه إلى نداء الغرب نفسه محذراً من أنها سوف تنهار على رؤوسهم وبأيديهم فقال:"يا ساكني ديار الغرب ليست أرض الله حانوتاً، أن الذي توهمونه ذهباً خالصاً، سترونه زائفاً، وأن حضارتكم ستبعج نفسها بخنجرها، وأن العز الذي بني على غصن غض رقيق لا يثبت". [٢]

المبحث الثالث: الشمول والتوازن.

تميز النقد الإسلامي للحضارة الغربية بشمول التناول مع توازن كبير في هذا النقد الشامل، حيث شخص مشكلات الحضارة الغربية بكامل أزماتها موضحاً ما بينها من تلازم، ولم يبني النقد الإسلامي موقفه النقدي على مجرد الإلحاد أو الموقف العدائي التاريخي للإسلام والمسلمين بل أزاح الستار عن عدد من المنطلقات التي شكلت جوهر النقد الحضاري للغرب والتي تميز بالفعل بالشمولية والتوازن، يقول عماد الدين خليل: "النقد الإسلامي نقد شمولي مُتوازن، شأْنه في ذلك شأن سائر الفعاليات التي تتحرَّك في إطار الإسلام؛ لأنها تستمدُّ من رؤيته الشاملة المتوازنة مقوِّماتها وملامحها، إنَّ هذه الرؤية ترفض أشدَّ الرفْض تلك الخطيئة المنهجيَّة التي مارسَها الغربيون كثيرًا، واستمرؤوها طويلاً، النظرة الأحادية الجانب، التشبُّث بوِجْهة النظر المحدَّدة، رغم أنَّها

---

[١] الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، ص: ١٦.

[٢] أنظر: محمد إقبال فكره الديني والفلسفي، محمد العربي بوعزيزي، ص: ٧٠

تصدر عن زاوية ضيِّقة، بينما هنالك – إذا أردنا الاقتراب من الحقيقة – عشرات الزوايا الأخرى؛ لالتقاط صورة أقرب إلى الواقع".[١]

وسوف أسوق بعض المقولات المؤكدة على هذه الخاصية من كتابات مفكري القرن العشرين حيث يظهر هذا بجلاء عند سعيد النورسي حين قال: "إن أسس المدنية الحاضرة سلبية، وهي أسس خمسة، تدور عليها رحاها فنقطة استنادها القوة بدل الحق، وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض، ومن هذا تنشأ الخيانة، وهدفها وقصدها منفعة خسيسة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة التزاحم والتخاصم، ومن هذا تنشأ الجناية، ودستورها في الحياة الجدال والخصام بدل التعاون، وشأن الخصام التنازع والتدافع، ومن هذا تنشأ السفالة. ورابطتها الأساس بين الناس العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، وتتقوى بابتلاع الآخرين وشأن القومية السلبية والعنصرية التصادم المريع، وهو المشاهد، ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك،وخامستها هي أن خدمتها الجذابة، تشجيع الأهواء والنوازع، وتذليل العقبات أمامهما، وإشباع الشهوات والرغبات؛ وشأن الأهواء والنوازع دائمًا مسخ الإنسان، وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية وتمسخ مسخاً معنوياً، إن معظم هؤلاء المدنيين لو قلبتَ باطنهم على ظاهرهم، لرأيت في صورتهم سيرة القرد والثعلب والثعبان والدب والخنزير".[٢]

فالملاحظ أن هذه الرؤية الفاحصة كانت شاملة للأسس والغايات والمآلات وهي تمثل النقد الشامل في أوضح صوره. وهكذا أيضاً كان المفكر روجيه جارودي وعلي عزت بيجوفتش اللذان مارسا النقد الحضاري الشامل للحضارة الغربية بدءاً بأصولها الفلسفية ونظرياتها العلمية وانتهاءً بواقعها الأخلاقي والاجتماعي، وزاد البعض على ذلك بمقارنة الإسلام مع بقية الأديان الأخرى في فلسفة الحياة ورؤية الكون والإنسان وقد أبدع بيجوفتش في هذه المقارنة بين رهبنة المسيحية وانغلاق اليهودية وتوسط الإسلام في كتابه الإسلام بين الشرق والغرب حين قال: "فالإسلام فيه نسخة من الإنسان الذي فيه تلك الومضة الإلهية والمرتبط بتعاليم الواقع"[٣] ويقول:" يؤكد القرآن على خلاف الأناجيل أن الله خلق الإنسان ليكون سيداً في الأرض خليفة، وسخر له الأرض ليعمرها

---

[١] مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي، عماد الدين خليل، ص: ١٨٩.

[٢] الكلمات، الكلمة السابعة والعشرون - رسالة الاجتهاد، النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص:٩١١.

[٣] الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفتش، ص: ٢٦٨.

بالعلم والمعرفة والعمل وهذا يعني أن الإسلام لا يستهدف الثقافة فقط وإنما يسعى ليبني حضارة". [١]

المبحث الرابع: الموضوعية والإنصاف

لم يكن النقد الإسلامي للحضارة الإسلامية متعالياً أو هجائياً لاذعاً بل كان في كتابات المفكرين المسلمين على قدرٍ عالٍ من الموضوعية والإنصاف، وكان مشتملاً على الاعتراف بالكثير من مميزات الحضارة الغربية والإقرار بها مع بيان سبب إيجابيتها ومدعماً بالدعوة إلى الاستفادة من تلك الإيجابيات ومن مظاهر الموضوعية في كتابات نقاد القرن العشرين ما يلي:

١. الاعتراف بقوة وهيمنة الحضارة الغربية وإعطائها موقعها في النقد والتعامل الحضاري وهو ما سماه مالك بن نبي (إشعاع الحضارة الغربية الممتد) حيث يقول وهو يتحدث عن صلة الغرب بالمشكلة الحضارية في العالم الإسلامي: "لا شك أن هذا الإشعاع العالمي الشامل الذي تتمتع به ثقافة الغرب، هو الذي يجعل من فوضاه الحالية مشكلة عالمية، ينبغي أن نحللها وأن نتفهمها في صلاتها بالمشكلة الإنسانية عامة، وبالتالي بالمشكلة الإسلامية"[٢].

وقد أفاض ابن نبي في نقد عالمية الحضارة الغربية مع إقراره بها؛ فالمبررات التي جعلت ابن نبي يؤمن بعالمية الحضارة الغربية، هي مبررات واقعية من منظور اجتماعي يرصد الظاهرة في حركتها وتأثيرها في التاريخ، ولعل من المبررات التي جعلته يتبنى هذا التحليل السوسيولوجي عدة مظاهر تدعو إلى النظر إلى الحضارة الغربية من زاوية حضورها العالمي، وذلك من حيث انتشار المفاهيم الغربية في العالم كله، وتبني معظم الناس لها كليًا أو جزئيًا، والذي لم يتبنها جعلته يتخذ منها موقفًا ويستحضرها انتقادًا أو رفضًا عند صياغته لمفاهيمه الخاصة، كما أن تبني معظم شعوب العالم كثيرًا من الأنظمة وأنماط الحياة التي أبدعها الغرب، وانتشار النموذج الاستهلاكي الغربي للحياة في كل المجتمعات المعاصرة، هو أحد صور هذه العالمية، ومن جهة أخرى –والذي يبدو أن لا مفر منه– انتشار التكنولوجيا والإنتاج الصناعي الغربي في العالم كله، والذي أصبح يشكل أحد سمات هذا الحضور الغربي في كل بيت

---

[١] المرجع السابق، ص: ٢٧٣.

[٢] وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ص: ١٢١.

في العالم، وليس كل مجتمع فقط، هذا بالإضافة إلى الاستعمار الغربي الذي شمل الإنسانية كلها خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، هذا الاستعمار الغربي الذي استنزف العالم كله وشمل كل قطر، مما وحّد هموم الإنسانية وجعلها كلها تتعرض لهيمنة النموذج الغربي نفسه، مما جعلها أقرب إلى النظرة المشتركة في كثير من قضاياها المرتبطة بمرحلتي الاستعمار وما بعد الاستعمار، فكان الغرب عالميًا على مستوى الوعي الإنساني، من خلال فرضه لنفسه على هذا الوعي أن يستحضره بفعل ما خلف من مشكلات تؤرق وتدعو إلى التفكير في حلها وعزلها عن المعامل الغربي. [١]

٢. من مظاهر الموضوعية في النقد الإسلامي لدى مفكري القرن العشرين تأكيدهم على ضرورة دراسة الحضارة الغربية وفلسفاتها قبل الحديث عنها أو نقدها، فغالبية نقاد القرن العشرين هم من هذا النوع الذي درس الغرب وفلسفته دراسة مستفيضة ولم يكن جاهلاً أو متطفلاً تحمله الغيرة الدينية فقط أو النزعة القومية، بل هم ممن رفضوها بعد أن عرفوها، سواءً من العرب أو غيرهم. ومن أمثلة ذلك محمد إقبال الذي قال عنه أبو الحسن الندوي: "لقد كان في مقدِّمة هؤلاء الناقدين الثائرين محمد إقبال، الذي يُعتبَر بحق أنبغ عقل أنتجتْه الثقافة الجديدة، والتي ظلَّت تَشتغِل وتُنتِج في العالم الإسلامي من قرن كامل، وأعمق مُفكِّر أوجده الشرق في عصرنا الحاضر، ولم نرَ من نوابغ الشرق وأذكيائه –على كثرة من لهم اتصال بالغرب والدراسة هناك– أحدًا نظَر في الحضارة الغربية هذا النظر العميق، وانتقدها هذا الانتقاد الجريء". [٢]

ومثله مالك بن نبي، وجارودي، وبيجوفتش، والمسيري، وأنور الجندي، وغيرهم ممن مارسوا النقد الإسلامي للحضارة الغربية بعد أن نهلوا من معينها ونالوا فيها أعلى الشهادات، بل بعد أن كان البعض منهم قد تربى ونشأ فيها.

٣. الثناء على محاسن الحضارة الغربية والدعوة إلى تبنيها كما نبه كثير من المفكرين الناقدين إلى سرّ التفوق الحضاري للغرب وهو الفاعلية وكيف استطاعوا عولمة حضارتهم بالعناية بالقوة العلمية والصناعية وشروط النهضة،

---

[١] أنظر: الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري، بدران الحسن، ص: ١٨٦.

[٢] الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، الندوي، ص: ٨١.

يقول المفكر علي عزت بيجوفتش: " قوة العالم الغربي لا تكمن في طريقته في الحياة، وإنما في طريقته في العمل والعلم والشعور بالمسؤولية". [١]

إن العدل والإنصاف فوق كونه شرطاً أدبياً للنقد فهو قبل ذلك منهجٌ شرعي إيماني مقرر في كتاب والله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فقد قال تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ المائدة: ٨

فالغرب تقدم، وامتلك مقومات الإبهار والسيطرة والنفوذ، ابتداء بقوة تطبيق الأفكار وفاعليتها في رسالته الحضارية التي صنعت المعالم الأساسية لهذا العصر، وقد عقد الإمام مسلم بابًا في صحيحه سمّاه: (باب: تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ) وفيه ذكر ما نصه: قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: "تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ". فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ؟! قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ، قَالَ: لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ، إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا: إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَ أَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ، وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ، وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ.[٢]

المبحث الخامس: الاتساق والاطراد.

من سمات النقد الإسلامي للحضارة الغربية ما يسمى بالاتساق والاطراد. والاتساق: هو الترابط و عدم التناقض، والاطراد: يعني الوصف الثابت المنتظم.[٣] وهاتان السمتان من أبرز خصائص الفكر الإسلامي في نقده للحضارة الغربية، فباستقراء النقد الإسلامي عبر أغلب كتابات مفكري القرن العشرين يظهر معنى الاتساق في النقد والذي تمثل في العناصر التالية:

١. اتباع هؤلاء المفكرين لمنهجية واحدة في تناولهم النقدي وإن تميز أحدهم بالتعمق في إحدى القضايا إلا أنهم أتوا على ذات الأسس وبذات المنهجية وإن بشكل متفاوت قليلاً، مما لا ينفي الاتساق والاطراد والثبات في العملية النقدية. وباستعراض الأسس

---

[١] الإعلان الإسلامي،علي عزت بيجوفتش، ترجمة: محمد يوسف عدس، ص: ٥١.

[٢] صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب: تقوم الساعة والروم أكثر الناس، ج: ١٨، ص: ٣٤٦،حديث رقم:٢٨٩٨.

[٣]) أنظر: التلقي والتأويل، محمد مفتاح، ص: ١٥٧.

والخصائص السابقة ونقل شواهدها من مؤلفاتهم تنتظم لنا هذه الخاصية التي تؤكد سلامة المنهج النقدي في كتابات مفكري القرن العشرين حول الحضارة الغربية، وهذا الاتساق والاطراد قد لا يعني الاتفاق الكامل مع كل ما كتبوه وفي كل مجال، ولا يعني عدم وجود ما يمكن استدراكه على تلك الكتابات لكن المقصود هنا هو ضبط منهج النقد وبيان سماته وخصائصه التي تميز بها بغض النظر عن جوانب الاتفاق والاختلاف بين تلك الكتابات أو بينها وبين ما يراه غيرهم في تلك الحقبة الزمنية أيضاً.

٢. من عوامل الاتساق في الفكر الإسلامي صدوره عن رؤية توحيدية خالصة واتفاق جميع أطيافه على هذه الرؤية مهما تباعدت مدارسهم الفكرية وربما الفقهية أيضاً وهذا الاتساق شهد له مفكرو الغرب أنفسهم، يقول مارسيل بوزار[١] في كتابه إنسانية الإسلام: "فإن الإسلام حضارة أعطت مفهومًا خاصًا للفرد، وحددت بدقة مكانه في المجتمع وقدمت عددًا من الحقائق الأولية التي تحكم العلاقات بين الشعوب، كما أن هذه الحضارة لم تقدم فقط مساهمتها التاريخية الخاصة في الثقافة العالمية، ولكنها تؤكد أيضًا، ولها مبرراتها على تقديم حلول للمشاكل الرئيسية للأفراد والمجتمعات والمشاكل الدولية التي تثير الاضطرابات في العالم المعاصر، إن الإسلام هو اتصال بين الله كإله وبين الإنسان كإنسان فالإسلام تسليم يقيني نشط وعن طواعية إلى المشيئة الإلهية ومن الناحية التاريخية، فلقد أنجب هذا الدين «أمة»، وأوجد أسلوبًا للحياة والعمل والتفكير، وفي كلمة واحدة: فقد أنجب حضارة... ويدل التاريخ على وجود حقيقة ثابتة مثالية في الحضارة الإسلامية، التي كانت منذ بدئها ولا تزال، متوجهة توجهًا كاملًا نحو الله" .[٢]

ولا شك أن هذا الاتساق الإسلامي بين الرؤية والمناهج التي ينطلق منها الفكر الإسلامي قد ألقى بظلاله على الإنتاج النقدي للحضارة الغربية وكتابات المفكرين المسلمين عنها.

---

[١] أستاذ جامعة سويسري، عمل ممثلًا للجنة الدولية للصليب الأحمر في عدة دول إسلامية ومديرًا مشاركًا في برامج التثقيف الدبلوماسي بالمعهد الجامعي للدراسات الدولية العليا بجنيف ومندوبًا مفوضًا أوروبيًا بالجمعية الثقافية الدولية المعروفة باسم "الإسلام والغرب".

[٢] إنسانية الإسلام. مارسيل بواز. ترجمة: عفيف دمشقية. ص: ١٦٨.

الخاتمة

قدمت هذه الدراسة عرضاً موجزاً لأبرز أسس المنهج النقدي في تناول الحضارة الغربية من قبل كوكبة من مفكري القرن العشرين، مع بيان الخصائص التي اتسم بها، وقد كانت النتائج التي توصل إليها البحث كالتالي:

١. أسّس النقاد المسلمون نقدهم للحضارة الغربية على أسس خمسة، تمثل عناصر تلك الحضارة وهي: الأساس الفلسفي، الأساس الأخلاقي، الأساس الواقعي، الأساس التاريخي، الأساس المنهجي.

٢. تميز النقد الإسلامي للحضارة الغربية بخمسة مميزات وهي: المرجعية والانفتاح، والغائية، والشمول والتوازن، والموضوعية والإنصاف، وأخيرا: الاتساق والاطراد.

٣. لقد ظهر لي من خلال استقراء مؤلفات النقد للحضارة الغربية، كم بذل المفكرون المسلمون جهدهم في هذا العمل النقدي داعين إلى استثماره في خير الأمة الإسلامية والعالم أجمع، وذلك بنقل المفيد وترك الضار مع مواجهته بالرد والتفنيد.

ومن خلال ما سبق أوصي بعدد من التوصيات كما يلي:

١. متابعة المثقفين وطلاب العلم لهذا المشروع النقدي للحضارة الغربية في أبحاث جديدة تجمع ما كتب بعد تيار العولمة وتطبق منهج الإسلام في النقد عليه لتأصيل هذا المنهج في الواقع المعاصر.

٢. تشجيع الدراسات النقدية لبعض كتابات المفكرين في تلك الحقبة بشكل فردي أو مقارن.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المراجع

١. الإسلام بين الشرق والغرب. بيجوفتش، علي عزت. ترجمة: محمد عدس. ط١، دار الشروق، مصر، ١٤٠٤هـ.

٢. الإسلام على مفترق الطرق. أسد، محمد . ترجمة: عمر فروخ. ط٢، دار العلم للملايين، ١٩٤٨م.

٣. الإسلام والغرب. الندوي، أبو الحسن. ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٤. الإعلان الإسلامي. بيجوفتش، علي عزت. ترجمة: محمد يوسف عدس. دار الشروق، مصر، ١٩٩٩م.

٥. أخطاء المنهج الغربي الوافد في العقائد والتاريخ واللغة والأدب والاجتماع. الجندي، أنور . ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٤م.

٦. إنسانية الإسلام. بواز، مارسيل. ترجمة: عفيف دمشقية. ط٢، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٣م.

٧. تاريخ النقد الأدبي عند العرب. عباس، إحسان . ط ، ٤دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣.

٨. دراسات إسلامية معاصرة. الجندي، أنور. ط١، مكتبة الكتابة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٨٢م.

٩. دراسات معرفية في الحداثة الغربية. المسيري، عبد الوهاب. ط١، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ١٤٢٧هـ.

١٠. ديوان جناح جبريل. إقبال، محمد. ترجمة: جلال الحفناوي. مراجعة محمد علاء الدين. المركز القومي للترجمة، القاهرة، المشروع القومي للترجمة، العدد ٥٦١، ٢٠٠٣م.

١١. رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر (سيرة غير ذاتية، غير موضوعية). المسيري، عبد الوهاب. دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠م.

١٢. روائع إقبال. الندوي، أبو الحسن. ط١، دار الفكر، دمشق، ١٣٧٩هـ.

١٣. شروط النهضة. بن نبي، مالك. ترجمة: عبد الصبور شاهين، وعمر مسقاوي. ط١ ، دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٦م.

١٤. صحيح مسلم (المسند الصحيح لمسلم بن الحجاج القشيري). تحقيق: ابو قتيبة الفاريابي، ط١، دار طيبة، ٢٠٠٦م.

١٥. الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية. الندوي، أبو الحسن. ط ١،سوريا، دار القلم، ٢٠١٢م.

١٦. الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري أنموذج مالك بن نبي. الحسن،بدران. ط١، رئاسة المحاكم الشرعية بقطر، ٢٠٠٠م.

١٧. الفتاوى الكبرى. ابن تيمية. جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم، ط ٢، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ.
١٨. فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر. خليل، عماد الدين. مؤسسة الرسالة، ١٩٧٧م.
١٩. في مهب المعركة إرهاصات الثورة (مشكلات الحضارة). بن نبي، مالك. ط٣، دار الفكر، دمشق، سوريا، ١٩٨١م.
٢٠. مقاييس اللغة. ابن فارس. تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، دمشق، سوريا، ١٣٩٩هـ.
٢١. الكلمات. النورسي، بديع الزمان. ترجمة: إحسان قاسم الصالحي. ط ٣، دار إخلاص نور نشريات، أنقرة ٢٠٠٠م.
٢٢. لسان العرب. ابن منظور. ط٣،دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ.
٢٣. اللمعات. النورسي،بديع الزمان. ترجمة: إحسان قاسم الصالحي. ط ٣، دار إخلاص نور نشريات، أنقرة ٢٠٠٠م.
٢٤. محمد إقبال فكره الديني والفلسفي. بوعزيزي، محمد العربي. ط٢، دار الفكر، دمشق ٢٠٠٤م.
٢٥. مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي. خليل، عماد الدين. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧ه.
٢٦. مستقبلنا بين التجديد الإسلاميّ والحداثة الغربية. عمارة،محمّد. ط٢، مصر، مكتبة الشروق الدّولية، ٢٠٠٧م.
٢٧. المستشرقون والسيرة النبوية. خليل، عماد الدين. ط١، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بيروت ١٤٢٦ هـ.
٢٨. مشكلة الثقافة. بن نبي، مالك. ترجمة: عمر مسقاوي. دار الفكر، دمشق، سوريا، ٢٠٠٦م.
٢٩. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. بن نبي، مالك. دار الفكر، دمشق، سوريا ٢٠٠٢م.
٣٠. المعجم الأدبي. عبد النور، د. جبور. ط٢، دار العلم للملايين، ٢٠٠٩م.
٣١. مُعجم المصطلحات الأدبية. علوش، سعيد. ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م.
٣٢. مقالات من رينيه جينون. أ.د. زينب عبد العزيز. دار الأنصار، ١٩٩٦م.
٣٣. وجهة العالم الإسلامي (مشكلات الحضارة). بن نبي، مالك. ط١، دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٠م.